المواطنة في فكر الإمام علي (ع)

قراءة معاصرة

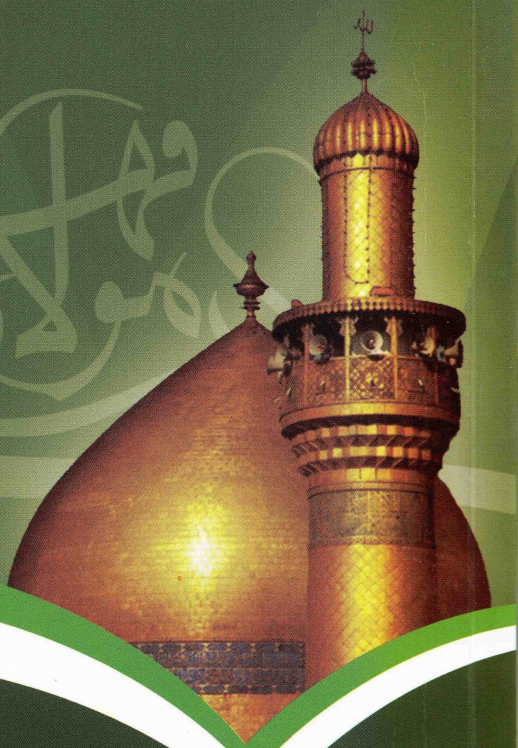

الشيخ محمد عسيران

دار المحجة البيضاء

مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

المواطنة في فكر الإمام علي عليه السلام
قراءة معاصرة

المواطنة في فكر الإمام علي عليه السلام

قراءة معاصرة

الشيخ محمد عسيران

دار المحجة البيضاء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

الإهداء

إلى من حبّه زادي

وشفاعته يوم العرض أملي ورجائي

ومدينة علمه ملجاي وحصني

وولايته دفء قلبي وهوى فؤادي

فتقبل مني يا سيدي

صوراً استعرتها من بلاغتك

وأفكاراً إغترفتها من بحر معرفتك

عساي اهتدي بنور مصباحكم

وأكون من المخلصين على قارب نجاتكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

الضامن حسن ثوابه لمن آمن به

وصلّى الله على محمد المختار بيت العلم

وعلى وصيّه علي بن أبي طالب قبلة الحق

وعلى الأئمة الأطهار من ذريته مقصد الهدى وبابه

﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

يتمثل النور الإلهي في الأرض ببضعة من الآدميين شاء لهم الله أن يمتازوا عن سائر الخلق بذلك. فهم مشاعل الخير والهداية على مرّ العصور والأجيال وقادة الأمم والمجتمعات نحو السعادة والصلاح. اختارهم الله فكانوا نور الله في الأرض يملأونها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوْراً.

ننحني إجلالاً بين يديك سيدي يا أمير المؤمنين. يا من حبه عنوان صحيفة المؤمن، وذكره بخور يعبق في سماء الإسلام...

أي قلم يرقى إليك ليكتب عنك وأنت ألفباء الرسالة المحمدية وسورة الدهر والنبأ العظيم في القرآن الكريم.

أي صوت يتحدث عنك وأنت صوت الحق وسيد البيان!.. أي ضوء يسلّط عليك، وأنت نور إلهي انبعث من البيت العتيق وأضاء سماء

الإسلام وحامل لواء النبي ﷺ!...

كثيرة هي الآيات الكريمة التي نزلت بحق الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[2].

كذلك قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[3].

لعلي عليه السلام فضل ظاهر ومقام رفيع، والنص على إمامته واضح وصريح.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

قال تعالى:

﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾[1].

فقام النبي ﷺ في غدير خم خاطبا فقال: **«من كنت مولاه فهذا علي مولاه االلهم والِ من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله. علي مع الحق والحق مع علي اللهم أدر الحق معه حيث دار».**

فأنزل تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[2].

عسانا نستلهم بعضاً من تلك الإشراقات لنستضيء بها في بحثنا هذا الذي أردناه قراءة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

معاصرة في فكر الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام، نسلّط فيها الضوء على موضوع المواطنة في خضم التحديات المصيرية التي تواجه الأمة.

نخصص القسم الأول من هذا البحث لتبيان واقع الأمة في عصرنا هذا وما آلت إليه الحياة المعاصرة من تهميش لإنسانية الإنسان وتشويه للتعاليم السماوية وصراع بين الحضارات يهدد الهوية ويكاد يعصف بالتعايش والتعددية، ثم ننتقل في القسم الثاني إلى مفهوم المواطنة ومبادئها نستقرأها في فكر الإمام عليه السلام لنخلص إلى ضرورة ترسيخ القيم وتثبيت الهوية وحماية التعددية من خلال المواطنة.

القسم الأول

صراع الحضارات
والخوف على الهوية

نعيش اليوم في خضم حرب حضارية باردة متعددة الجبهات، متنوعة التحديات، سواء كان ذلك على الصعيد السياسي أم الإقتصادي أو الإجتماعي وصولاً إلى الصعيد الديني والفكري والثقافي. مما لا شك فيه أننا نشهد ثورة معلوماتية غير مسبوقة، ثورة عابرة القارات لا تعرف الزمان ولا تهتم بالمكان، ثورة معرفية تخترق ثقافات الشعوب.

إنه عصر الكلمة والصورة القادرتين على تخدير الشعوب وتطويع العقول. لقد تطورت المعرفة بشكل مذهل فاستطاعت تحطيم ثوابت الفكر، وبدل أن تساهم في تماسك المجتمعات

وتآلفها وتعاونها وتقريب ما بينها من مسافات، كان الواقع عكس ذلك حيث زادت حالات التفكك والصراع والتطرف بأشكاله، فاختلّت المعايير، واضمحلّت القيم الأخلاقية وتحوّل العالم إلى قرية كونية صغيرة يذوب كيانها وتتبدد حدودها في خضم ما يعرف بالعولمة. وهنا يكمن التحدي الكبير بالنسبة لنا نحن الشرقيين، مسلمين ومسيحيين.

أ ـ العولمة وخطرها على الهوية

تمثل العولمة تهديداً للثقافة، وتشكّل خطراً على الهوية. هناك أفكار دخيلة تحاول مصادرة ثقافتنا وإضاعة هويتنا وطمس قيمنا. فتتغلغل في سلوكنا وتعشعش في روحانياتنا بغية التشويش عليها ثم تشويهها وبعدها القضاء عليها من خلال ترسيخ قيم جديدة في البناء النفسي والعقلي

للفرد. ينتج عن ذلك انشطار الثقافة في عالمنا إلى شطرين، شطر حديث يحاول اللحاق بركب العولمة، فتنشأ عنه التيارات الليبرالية وتنبثق عنه الدعوات اللادينية الملحدة، وشطر قديم يكافح لإثبات العقيدة وتثبيت الهوية، فكانت الحصيلة التطرف الديني والتيارات الأصولية والدعوات السلفية، وردات الفعل والفعل المقابل الإرهابية التي تعصف بالعالم اليوم، ضاربة عرض الحائط بالدعوات السماوية للتعايش والتوصيات الإلهية بقبول الآخر ونبذ الخلاف.

ب ـ «الربيع العربي»

لا شك أن للإسلام والمسيحية تاريخاً مشتركاً ودوراً فاعلاً في منطقتنا وهي تمر اليوم في مخاض عسير، إثر ما تشهده من فصول وأزمنة، وآخرها وليس أخيرها ما يُسمى «بالربيع العربي».

عن أي ربيع يتحدثون وإلى أي فصل من الفصول ذاهبون!

أهو ربيع يتبعه صيف حار؟ أم خريف يتلوه شتاء قار؟ وأين نحن بالتحديد من هذه الأزمنة والفصول؟...

لقد لفحت وجوهنا رياح العولمة، وتطايرت شظاياها في وجداننا الذي باتت تتقاذفه صراعات شتى وخيارات صعبة أصبحت تهدد هويتنا وتزعزع كياننا وتتعرض لوجودنا.

وإذا بالغبار الربيعي ينجلي، ولا تكتحل أعيننا برؤية براعم الحياة المتفتحة، براعم الأمل بمستقبل أفضل. البساط الأخضر تحوّل رماداً، وورود الربيع ذوت وصارت أشواكاً، وعطر الحدائق تحول دخاناً ينبئ عن حريق كبير يأتي على الأخضر واليابس ليترك وراءه الجمر تحت الرماد.

مجتمعاتنا العربية اليوم، وللأسف، تشكو الإنقسامات على أنواعها، وتعيش الصراعات على أشدها. يكاد لا يمرّ يوم إلا وتتفجر نزاعات هنا وانتفاضات هناك، تارة طائفية وأخرى مذهبية، ونادراً ما نسمع عن حروب قامت دفاعاً عن قضية وطنية أو قومية. لا بل تترامى إلى مسامعنا وتجتاح معجماتنا وتغزو تاريخنا وتجتاح جغرافياتنا عبارات ومصطلحات خطيرة ترسم هلالاً شيعياً هنا، يقابله هلال سني هناك، وما بين الهلالين نجم مسيحي يسطع نوره حيناً ويخبو حيناً آخر، تضيق به المساحات على رحابتها، وتطبق عليه السياسات المتصادمة والمتصارعة فيبدو أسيراً لمنطق الأقليات في منطقة سوادها الأعظم من المسلمين.

فيغدو المسيحيون فريسة الأوهام، تساورهم الشكوك فيتوزعون ما بين خائف يترقب أو راحل

يهاجر. وكأن العولمة الجارفة لم تترك لهم سوى قرار التشكيك في القدرة على الثبات في أوطانهم والتجذر في أرضهم وقبول الآخر والتعايش معه.

ج ـ تفشي الفتن والأفكار التكفيرية

لقد عادت تشنّف آذاننا عبارات وشعارات رنانة طنّانة تعزف على أوتار الطائفية الصدئة والمذهبية العفنة. وكأن الدين صار فزاعة الشعوب، مرتهناً للقرار السياسي تصادره الأحزاب والقوى كيف تشاء ومتى تشاء، وتدرجه في حساباتها الضيقة المشبوهة. فإذا بنا أمام كمٍّ من المفردات والعبارات والمعطيات التي تتسابق في الإدعاء بحماية الدين والحفاظ على الشرائع وصون حقوق الطوائف، ووأد الفتن إذا ما ذرَت قرنيها بين دين ودين أم مذهب ومذهب وكأن الأديان السماوية ما أوجدها الله تعالى إلا لنشر الخلاف والتفرقة بين بني البشر.

وإذ بشعوبنا تتحول إلى كيانات تعمل عبثاً على تثبيت هويتها، تخشى ضياعها وتفتش يائسة عن جذور تخاف اقتلاعها، وتتشبث بعقيدة لشدة حرصها عليها تكاد تفتقدها، فنرى بينهم من لم يعرف من الإسلام أو المسيحية إلا الإسم، ويتبجحون بتطبيق تعاليمها ولا يعلمون منها إلا الشكل، يولّون أنفسهم على العباد والبلاد، ونفوسهم مرتهنة لشياطين المصلحة الخاصة والتفرقة والإقتتال فيما بينهم، فتنعكس صراعاتهم حروباً ونزاعات مع الآخرين. لقد أضاعوا بوصلة الإيمان، وفرّطوا بتعاليم السماء، واستبدلوا شرائع الله بشرائع ونواميس مفتعلة مصطنعة باطلة أقل ما يقال فيها أنها مسخ الحضارات وكاريكاتور الديانات، تمضي قُدماً في إفساد بني البشر وتجريدهم أكثر فأكثر من تلك الروحانية وذاك الطابع الإنساني لتحولهم إلى ما يشبه

الأشياء أو أقل من ذلك، يتمسكون بخشبة خلاصهم المميتة، التعصب وتكفير الآخر.

تلك هي حالنا اليوم، حال الغريق الذي يتطلع إلى قارب نجاة ينتشله من عباب المحيط، حال المتعب الذي أنهكته الأيام وتثاقلت عليه الليالي، حال الجريح الذي أثخنته الجراح ولكنه لا يزال يأمل بالحياة.

إن تحديات العصر كثيرة، والمعارك التي نخوضها لا بل التي فرضت وتفرض علينا في كثير من الأحيان شرسة ومفصلية، تتطلب الكثير من الوعي واليقظة والإقلاع عن سياسات ذر الرماد في العيون. لقد آن الأوان لإخراج أنفسنا من قمقم الطائفية والإنطلاق إلى رحاب الأديان السماوية الواسعة التي تدعو إلى التعايش وقبول الآخر كما هو وعلى ما هو في مواطنة حقيقية.

إذن، لا بد لنا من إعادة صياغة هويتنا الدينية التاريخية، وإعادة الصياغة يعني فيما يعني تعميم ثقافة «المواطنة» التي أوصى به الدين الإسلامي وأكد عليها مراراً وتكراراً. مما يوجب إلقاء الضوء على كل ما يجمع، وجعل مساحة التقارب واللقاء أكبر فأكبر مؤمنين بأن «طرق الوصول إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق». مما يفتح الباب على مصراعيه لقبول الآخر واحترام قيمه ومشاركته في حضارته. فالتنوع لا يكون تهديداً وإنما فائدة وغنىً، علماً أن المسيحية والإسلام أوسع الأديان انتشاراً وأكثرها تقارباً.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

نحن لا نقول بصدام الحضارات بل نعترف بتفاعلها وتكاملها.

د ـ اعادة صياغة الهوية الاسلامية

ان إعادة صياغة هويتنا الدينية تعني إعادة قراءة الإسلام قراءة عصرية واعية، تغترف من معين القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

إن جميع بني البشر ينتمون إلى مصدر روحي واحد، وإلى مصدر مادي واحد، وتعددهم من حيث العرق والثقافة والدين لا يبرر انقسامهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

إن القرآن الكريم قد ألّف بين قلوب البشر المسلمين وغير المسلمين. فكانت الآيات التي تدعو إلى التاحبّ ونبذ الأحقاد، وإقامة العلاقات ومد الجسور بين أفراد المجتمع على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم ومللهم.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[2].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «فلا تكونَنَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكله. فهما اثنان إما أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق».

إن الخطاب القرآني يتوجه إلى البشر جميعاً.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

الإسلام دين التوحيد والوحدة، شاءه الله ديناً للإنسانية جمعاء لأنه دين الفطرة، يشترك فيه القاصي والداني، الأبيض والأسود، الغني كما الفقير، العربي كما الأعجمي. مما يهيؤ أرضية خصبة لتلاقي الشعوب كما ورد في الأثر: (كلكم لآدم وآدم من تراب).

أول مقومات التقارب وحدة المصدر ووحدة الإنتماء. البشرية جمعاء مرهونة لهذا الواقع. والنصوص الشريفة تدلنا على أهمية التعايش بين المؤمنين.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٤.

نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[1].

وفي الحديث الشريف: «**ليس منّا من دعا الناس إلى عصبية وليس منّا من قاتل لعصبية وليس منّا من مات لعصبية**».

إن القرآن الكريم والأحاديث الشريفة تبعث على الأجواء الإيجابية البنّاءة لإرساء قواعد المواطنة دونما أن يثير ذلك أي اضطراب على صعيد ممارسات الفئات المختلفة لعباداتهم. فهذه الأمور تخرج المؤمن من بوتقة التقوقع والإنعزال إلى فضاء الإيمان والتحرر.

المواطنة تكون التعويض عن الخواء الروحي والتعصب الديني والإنشطارات. نحن مدعوون لأن نتفحّص علاقاتنا فيما بيننا، والحالات كثيرة

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

حيث العيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين سلمي ومثمر. يجب أن يحيا الإسلام في الدائرة الإسلامية العامة ولا يكون حكراً على مذهب أو فئة.

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«رحم الله امرءاً إجترَّ مودّة الناس إلينا، فحدثهم بما يعرفون وترك ما ينكرون»[1].

نتحدث عن تغيير بنيوي عند الفرد بالعودة إلى أركان الدعوة المحمدية، الحب والحوار. التقوى وحدها مقياس لكرامة الإنسان. ينسحب هذا المبدأ على العلاقات الإجتماعية وينبثق منه مبدأ التسامح والتآخي العالمي في الإسلام. والعالم اليوم تسوده حالة الوعي، مما يساعد على استيعاب القيم والمفاهيم والمبادئ الإنسانية التي

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص ٦٥، الحديث رقم ٤.

يشترك فيها جميع الناس. يتحدثون اليوم عن حقوق الإنسان وعن الحرية والديمقراطية إلى ما هناك من قضايا العصر الحديث. وقد ذكر الإسلام عن تلك القضايا الشيء الكثير.

الحوار مسؤوليتنا وليس بوسعنا أن نتعذر بعدم القدرة على العمل. فالعالم مفتوح والوسائل متعددة. وليس الحوار محصوراً ببلد من البلدان، بل أمامنا العالم بأسره.

الإسلام هو رسالة الحب، الحب الإلهي الذي يكشف بنوره ضرورة الحوار وأهمية التعايش مع الآخر. وأي إصلاح يجب أن يبدأ بالذات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

الحوار المبني على الحب يكون الحوار الصادق البنّاء لأنه يخاطب العقول المستنيرة والضمائر الحية والقلوب المنفتحة. فالبشر أعضاء لجسم واحد، وكل الخلق عبيد الله، متحابون متوادّون في الله ﷻ.

الإسلام يأمر باحترام كل الكتب المقدّسة والديانات السماوية.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[1].

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[2].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

الحوار طريق لتعايش مشترك مع الحفاظ على الفوارق، حيث أن الإعتراف بالإختلاف بين بني البشر في الدين واقع بمشيئة الله تعالى.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

إن المواطنة إحدى ترجمات ذاك الاعتراف بالاختلاف ووجه من وجوه استيعاب التعددية. من هنا علينا تعريف المواطنة وتبيان مفهومها.

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

القسم الثاني

المواطنة في فكر الإمام علي عليه السلام
على ضوء القرآن الكريم
والسنة النبوية الشريفة

المواطنة

أ ـ تعريف المواطنة

لهذه الكلمة أكثر من بعد ولمضمونها أكثر من تفسير نظراً لشمول واتساع أفقها المعنوي واللفظي سواء كان ذلك على الصعيد السياسي أو الثقافي أم الديني أم الاجتماعي مما يحتم علينا تسليط الضوء على بعض من مفاهيمها لا سيما تلك التي تجعلها شديدة الإلتصاق بعالمنا المعاصر وتعقيداته.

إن المواطنة تعني في الدرجة الأولى تلك الروابط لا بل تلك المشاعر والاعتبارات ما بين المتوطن ووطنه ولربما كان بعضها طبيعياً تكوينياً روحياً أو عاطفياً أو إنسانياً أو قوميا أَو دينياً او

تاريخياً وفق ثقافة الفرد ومقومات شخصيته واندماجه في مجتمعه وولائه للدولة التي يعيش فيها.

هكذا تكون المواطنة عضوية كاملة في دولة، والمواطنون لديهم الحقوق وعليهم الواجبات ضمن تلك الدولة. والموضوع الرئيسي في هذا المجال هو موضوع التفاعل، التفاعل ما بين المتوطن ووطنه، فتصبح المواطنة عندها ممارسة سلوكية تنعكس على الجميع، بموجبها يدرك المواطنون أهمية بعضهم البعض على قدم المساواة دون تمييز بينهم بسبب الدين والمذهب والعرق والجنس.

فيتولد عند ذلك شعور الإنسان بأن الحياة التي تجمعه مع الآخر هي حياة واحدة ينتج عنه الشعور بالإنتماء إلى الجماعة، إلى الأرض، إلى الدين وإلى الدولة التي تحكم العلاقة بين هذه

الأطراف في الواقع الإجتماعي.

أن الشريعة الإسلامية تؤكدحقوق المواطنة وتصر على حمايتها. وفي القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة ترسيخ وضمانة لتلك الحقوق.

وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك حيث قال ﷻ:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1].

فالمواطنون في عهد النبي ﷺ على اختلاف إنتماءاتهم وأطيافهم كلهم كانوا ينعمون بنفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات لم يكن هناك من تمايز بينهم سوى الأعمال الصالحة. مما أوجد شبكة معاملات وعلاقات فيما بينهم نتيجة ذلك الاندماج في المجتمع والتواصل والتفاعل بين شتى المواطنين، للمسلم ما لغير المسلم، للعربي

(١) سورة هود، الآية: ٦١.

كالأعجمي وجود فعّال في المجتمع تصون حقوقه أحكام الشريعة الإسلامية وتطبق حيالهم العدالة والمساواة في أحضان مواطنة كريمة ينعم بها كل من انتمى إليها.

ب ـ الحرية الدينية

ها هم وفد نصارى نجران يقدمون على النبي ﷺ فيحين وقت صلاتهم، فقاموا في رحبة مسجد رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم. وصَلَّوْا إلى المشرق**»[1].

وهناك تأكيد واضح على حق المواطنة. فنقرأ في عهد النبي ﷺ لهم حول الخراج:

(لا يجار عليهم، ولا يحمّلون إلا قدر طاقتهم وقوتهم على عمل الأرض وعمارتها وإقبال ثمرتها، ولا يكلفون شططا، ولا يتجاوز بهم

(١) البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٨٢).

أصحاب الخراج من نظرات وكذلك بالطبع كانت لهم حرية الإعتقاد. إذ نقرأ في العهد:

(.. ولا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرهاً على الإسلام).

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2].

كما حافظ النصارى على حقوقهم الدينية ضمن إطار الوطن الإسلامي. فقد أنشأوا كنائس جديدة في مدن المسلمين وحواضرهم. ففي مصر بنيت عدة كنائس في القرن الأول الهجري مثل

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

كنيسة (مار مرقص) في الإسكندرية عام ٣٩ هـ. وكنيسة (الفسطاس) عام ٤٧هـ. وكان اليهود ينعمون أيضاً في عهد النبي ﷺ بكامل حقوقهم دينية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية. وقد مات النبي ﷺ ودرعه مرهونة ليهودي لقاء أصواع من شعير.

إن لأهل الكتاب خصوصية في شريعة الإسلام؛ ومظاهر احترام حريتهم الدينية كثيرة. الإسلام يسمح بتعايش مختلف الأديان داخل دياره مع ضمان الحرية لأصحاب هذه الأديان في المحافظة على معتقداتهم، وممارسة شعائرهم التعبدية، وحرية تصرفاتهم المدنية، وذلك تحت قاعدة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا).

فالقرآن الكريم لحظ قيمة الحرية الدينية لأهل الكتاب من خلال كثير من الآيات القرآنية التي حاورت أهل الكتاب وناقشتهم في معتقداتهم.

وهذه المساواة التي تقرها المواطنة في الإسلام إنما تنبع من وحدة الأصل الإنساني:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1].

وقال ﷺ:

«لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجميٍّ على عربي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى».

(من خطبة الرسول ﷺ حجة الوداع).

إن القرآن الكريم والأحاديث الشريفة تبعث على الأجواء الإيجابية البناءة لحماية الحريات وفي مقدمتها حرية الرأي والتفكير دونما أن يثير ذلك أي اضطراب. فهذه الأمور تخرج الفرد من بوتقة التقوقع والإنعزال إلى فضاء الإيمان والتحرر. فيكون مفهوم المواطنة ناتجاً عن

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.

قناعات الانسان التي تسلّط الضوء على كل ما هو اتفاق أو اختلاف. عن الإمام الصادق عليه السلام:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: قوام الدين بأربعة: بعالم ناطق مستعمل له، وبغنيّ لا يبخل بفضله على أهل دين الله، وبفقير لا يبيع آخرته بدنياه، وبجاهل لا يتكبر عن طلب العلم، فإذا كتم العالم علمه وبخل الغني بماله وباع الفقير آخرته بدنياه، واستكبر الجاهل عن طلب العلم، رجعت الدنيا إلى ورائها القهقري، فلا تغرنّكم كثرة المساجد وأجساد قوم مختلفة، قيل يا أمير المؤمنين، كيف العيش في ذلك الزمان؟ فقال: خالطوهم في الظاهر وخالفوهم في الباطن. للمرء ما اكتسب وهو مع من أحب، وانتظروا مع ذلك الفرج من الله عزّ وجلّ[1].

(١) بحار الأنوار ج٢، ص ٦٧، الحديث رقم ٩.

التقوى وحدها مقياس لكرامة الإنسان وينبثق عنها مبدأ التسامح والتآخي.

﴿...لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

حافظ الإمام علي عليه السلام على كرامات أهل الاديان «**الله الله في ذمة نبيكم فلا يظلمن في أظهركم**»[2].

كما وأن المواطنة تعطي صاحبها الحق في المشاركة في بناء الدولة التي رعته ومنحته شرعة الإنتماء إليها وتولي الوظائف العامة فيها حيث يعود إسناد الوظائف إلى معيار الكفاءة والأمانة والقوة.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) تهذيب الأحكام، ج٣، ص ١٧٧.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[1].

لا مانع من تولي غير المسلمين الوظائف العامة بموجب حق المواطنة وبحكم كون الإسلام ليس شرطاً لتولي كثير من الوظائف، بل أن هذه المشاركة واجبة في حقهم لما فيها من فائدة بإبداء الرأي وبناء المجتمع ورقيّه.

ج ـ العدل

العدل ركيزة أساسية في بناء المواطنة. العدل مبدأ قرآني أصيل حيث أمر به الله في آيات كثيرة كقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن

(١) سورة هود، الآية: ٢٦.

﴿تَعْدِلُوٓاْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[2].

جاءت سيرة أهل البيت عليهم السلام ترجمة لأحكام القرآن وتجسيداً لمبادئه. ففي موضوع المواطنة يقول علي عليه السلام:

«أعدل الناس من أنصف من ظلمه وأجور الناس من ظلم من أنصفه»[3].

«إعدل تحكم، إعدل تملك»[4].

بينما علي عليه السلام يمشي رأى درعه مع رجل يهودي فقال: هذه درعي، لم أبعها ولم أرهنها فقال اليهودي: هذه درعي. فقال له أمير

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٣) عيون الحكم والمواعظ، ص ١١٦.

(٤) مستدرك الوسائل، ج١١، ص ٣١٩.

المؤمنين عليه السلام: نذهب إلى القاضي، فذهب علي واليهودي إلى القاضي شريح. فقال علي عليه السلام هذه الدرع درعي، قال القاضي: عندك بينة يا أمير المؤمنين؟ قال: لا. قال لليهودي ما تقول؟ قال: الدرع درعي وتحت يدي. فحكم له بها وخرج. فقال اليهودي: أمير المؤمنين يذهب بي إلى القاضي ويحكم عليه ويرضى. هذا خلق الأنبياء. أما بعد هذا فإن الدرع درعك يا أمير المؤمنين وهي لك التقطتها يوم صفين[1].

والمتتبع لآيات القرآن يجد أن العدل ومعانيه وردت موزعة لتدل تارة على العدل مع الله في حسن الاعتقاد، وتارة على العدل في الحكم وتارة على العدل في الشهادات، وتارة على العدل في شؤون الأسرة، وتارة على العدل في الصلح بين المتخاصمين، كما تؤكد آيات أخرى

(١) الأغاني ج١٦، ص٣٦.

على وجوب العدل في القضاء بين الفرقاء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وقد سنّ رسول الله ﷺ لولاة الأمر سنّة في وجوب المحافظة على هذا الحق في العدالة بين رعايا الدولة المسلمة على اختلاف مرجعياتهم العقائدية والمذهبية، حيث أرسى أول مجتمع إنساني في تاريخ البشرية جسّد فيه معاني المساواة بين أبناء الدولة المسلمة في المدينة وما حولها من القرى، على أساس العدل والبر والأواصر الإنسانية. إن الإسلام لم يأتِ ليحكم فقط المسلمين بالعدل والإحسان، وإنما ليحكم

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

جميع الناس ضمن مجتمع عالمي يقوم على العدل والبر والإحسان لقوله تعالى في حق غير المسلمين:

﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

د ـ الحب والتعاون

إن الإسلام رسالة محبة ورحمة:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

يعزز المواطنة ويقويها مفهوم الحب والتعاون، بدء من حب الله إلى حب الأخوة في الله. ينتج عنها حب الأرض أو المكان الذي يتواجدون فيه ويتفاعلون فيما بينهم من خلاله وعلى مساحة الإئتلاف والحب لا الاختلاف والكراهية.

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

وقد قال سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

فلا يعلو على الوطن نظام قبلي أو نزعة طائفية أو مصلحة فردية. وإذا تزاحمت المصالح وتعارضت التوجهات فإن مصلحة الوطن في أمنه واستقراره وفي اقتصاده وتنميته واجتماعه وتكاتفه في المقدمة، ولها كلمة الفصل. والله يقول:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2].

والتعاون في أسمى معانيه تفاعل على تحقيق المصالح ودرء المفاسد فلذلك فهم (يأمرون

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

بالمعروف وينهون عن المنكر) فالمفهوم الشمولي لثقافة التعاون هو الشيء الذي جسّده الإسلام في الإيمانيات والفقهيات والأخلاقيات.

الإسلام هو رسالة الحب، الحب الإلهي الذي يكشف بنوره ضرورة التعايش والحوار والتعاون والتفاعل مع الآخر، وأي إصلاح يجب أن يبدأ بالذات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

العلاقات المبنية على الحب تكون علاقات صادقة، والمجتمع القائم على الصدق يكون مجتمعاً ناجحاً والدولة التي تحفظ حقوق المواطنة لأبنائها تكون دولة عامرة وزاهرة، تلك هي الدولة التي أرسى قواعدها الإسلام ورفع

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

بنيانها في قلوب المسلمين وشيّد بروجها في عقولهم وجعل مناراتها في وجدانهم قبل أن يعمدوا إلى بنائها المادي ورسم حدودها الجغرافية فكانت بادئ ذي بدء بناء معنوياً ومساحة بلا حدود مفتوحة على حب الآخر واحترام قيمه ومعتقداته. ولعل ما نعيشه اليوم في القرن الواحد والعشرين صورة مصغرة عن تلك الدولة الإسلامية الشامخة البنيان، المترامية الحدود، الممتدة الجذور من الأبد إلى الأزل، تلك هي دولة القرآن. وما التسميات المتعددة اليوم والمصطلحات الحديثة المنبثقة من قاموس العولمة إلا ترجمة مجتزأة وتعابير منسوخة لذلك الفضاء الرحب، الفضاء القرآني الذي يجعل من العالم قرية كونية شاءها الله تعالى مساحة لقاء وائتلاف، لكن حولها البعد عن الله وعن تعاليمه السماوية مساحة صراع واختلاف يطلقون عليها

تسميات عدة ومسميات مختلفة تارة تعريب وتارة تغريب وتارة دول الشمال وتارة دول الجنوب وغيرها وغيرها ونسوا أن المطلوب في كل ذلك هوية الإنسان الذي بات رقماً في التكنولوجيا الرقمية وكرة ثلج تتقاذفها الحضارات في صراعات مدمرة ونزاعات خطيرة.

هـ ـ الديموقراطية

لبناء مجتمع عادل مبني على الحب والتعاون بين الأفراد لا بد من الشورى بينهم إرساء لقواعد المواطنة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

فالإسلام ليس دينا يدعو إلى الإيمان بالله وحده وأداء العبادات فحسب بل يدعو المؤمنين به إلى نبذ الأنانيات وترك المنكرات من الأمور وتجنب الظلم حتى نصل إلى عالم أكثر عدلاً وسلاماً.

إن الأديان تدعو المؤمنين لمعاملة الآخرين بما يحبون أن يعاملوا به وعدم معاملة الآخرين بما لا يحبون وتدعو إلى التعايش مع الحفاظ على الفوارق.

إن المواطنة تعكس الاختلاف مظهراً من مظاهر التنوع الإنساني وقدرة وعظمة الخالق:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[1].

إن البشرية حسب مفهوم كتابنا القرآن الكريم أمة واحدة وستبقى كما هي. إلاّ أن هذه الوحدة مع الفوارق وهذه الفوارق لا تعتمد على تغيير المجتمع من الأمثل إلى الخيال ولا تنشأ من عدم إرشاد إلهي أو جهل الإنسان بل أن الفوارق والتعددية الدينية والاجتماعية والسياسية والمالية وغيرها نتيجة طبيعية لاختلاف الثقافات الإنسانية ولغاتها وأجناسها وبيئاتها حيث يشير إليها سبحانه وتعالى بقوله:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

(١) سورة الروم، الآية: ٢٢.

فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

إن وجود هذه الفوارق نتيجة طبيعية في حياة الإنسان من حيث المكان واللغة والثقافة لذلك فإن وجود هذه الفوارق لم يكن محل استنكار بالذات من القرآن الكريم بل كان اللوم على استعمال هذه الفوارق كسبب للعداء والنزاع والصدام، هذا ما استقبحه القرآن الكريم ولم يرضَ به.

قلما يكون مجتمع من المجتمعات كلي التجانس إذ أنه لا يخلو الأمر من تفاوت واختلاف وفوارق بين طبقات المجتمع الواحد،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

عندها نتحدث عن التعددية في المجتمع سواء كانت دينية أو سياسية أو ثقافية. وفي هذه الحالة يحسن السعي إلى إيجاد التعايش والتفاعل كأسلوب متبع في كافة المجتمعات التي هي بطبيعتها تعددية. وليس هناك سوى إيديولوجيتين اثنتين لأسلوب العيش المتبع فيهما، أيديولوجية التعصب، وأيديولوجية التسامح. أما الأولى فثمارها التناحر والتقاتل وعدم تقبل الآخر، مما يودي بالمجتمع التعددي ويبقيه عرضة للمشاكل والصراعات. أما الثانية فتعتمد الأسلوب الذي يفضي إلى العيش المشترك والمصالح المتبادلة والتفاعل الإيجابي البناء تحت مظلة الألفة والمحبة وقبول الآخر. ومما لا شك فيه هو أسلوب اعتمده العالم الغربي بأكثر دوله وأطلق عليه تسمية الديموقراطية التي تتغنى بها الشعوب المتحضرة وقد نص عليها القرآن الكريم:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[2].

كما جاء في حديث الإمام علي عليه السلام:

«صلاح شأن الناس التعايش الآمن».

ويقول عليه السلام في موقع آخر:

«صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام، وأن المبيرة الحالقة للدين فساد ذات البين»[3].

وقوله أيضاً: **«عليكم بالتواضع والتباذل والتبار، وإياكم والتقاطع والتفرق والتدابر»**[4].

و ـ نبذ الفتن والارهاب

إن بذور الشقاق ورياح التفرقة تقوض بنيان المجتمع وتزرع فيما بين أبنائه الفتن القاتلة التي

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٣) الكافي ج٧، ص ٥١.
(٤) شرح نهج البلاغة، ص ٢٠.

نبّه إليها الإمام علي عليه السلام في أكثر من موضع لا سيما حين أدرك نوايا أبي سفيان التي كانت تهدف إلى شطر الأمة المسلمة إذ قال له:

«والله ما أردتَ بهذا إلا الفتنة وإنك والله بغيتَ للإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك».

وفي رسالته عليه السلام للأشتر:

«إياك والدماء وسفكها وسفكها بغير محلها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد»[1].

كي تستقيم المواطنة وتتحقق لا بد من نبذ الفتنة. وقد تحدث علي عليه السلام عن التعايش باعتباره نقيض الفتنة والتناحر. فما هي الفتنة؟

---

(١) عهد الاشتر ص٢٩.

حدد علي عليه السلام الفتنة بقوله:

«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تُبتدع»[1].

إن جوهر المواطنة يقوم على الوعي وعدم الانجرار وراء الدسائس الرخيصة والفتن المميتة التي تجد في الاختلاف والتعددية مناخا مناسبا وأرضا خصبة لطرح شباكها الخبيثة وتمرير مخططاتها المشبوهة. هنا تكمن أهمية فهم الآخرين كما هم على اختلاف اصولهم العرقية والقومية واحترام حرياتهم وليس المطلوب تغيير عقيدتهم أو تبديلها.

يوصي علي عليه السلام بالجيران بقوله:

«الله الله في جيرانكم، فان النبي صلى الله عليه وآله أوصى

---

(١) نهج البلاغة ج١، ص ٩٩.

بهم وما زال رسول الله ﷺ يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم»[1]:

ويقول علي عليه السلام أيضاً:

«لو ثنيت لي الوسادة أي وصلت إلى الحكومة فجلست عليها لحكمت في أهل التوراة بتوراتهم وفي أهل الإنجيل بإنجيلهم وفي أهل القرآن بقرآنهم حتى ينادى كل كتاب بأن علياً قد حكم فيّ بحكم الله»[2].

ويقول عليه السلام كذلك:

«وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد»[3].

---

(١) الكافي ج٧، ص ٥١.

(٢) عيون أخبار الرضا، ج٢، ص ١٤٠.

(٣) مستدرك الوسائل ج١٣، ص١٦٦.

ليس كالاسلام دين أو عقيدة تؤسس لمواطنة سليمة تنأى بالمجتمع عن الفتن بضمان الحقوق لكل أبنائه لأن تحصين النفوس وعمارتها هو الأهم.

ز ـ المساواة والتعايش الآمن

المواطنة أيضاً هي التعايش بسلام وأمان في وطن تسوده المساواة بين كافة مواطنيه.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[1].

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام يستطيع الإنسان أن يقيم علاقات مع الآخر ويتفاعل معه اجتماعياًوشأنه شأن كل مواطن. ونذكر في هذا المجال قاعدة الإلزام.

---

(١) سورة الحشر الآية: ١٠.

«ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم»، «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[1].

وفي حديث آخر: «من سمع رجلاً يقول يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم».

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾[3].

---

(١) الكافي ج٢، ص ١٦٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٦.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«قيمة كل امرئ ما يحسن»[1].

كذلك يوصي عليه السلام بالتكافل.

بالتكافل بين أبناء المجتمع والتعاون.

(ما جاع فقير إلا بما متع به غني)[2].

(إن الذنب الذي لا يغتفر هو ظلم العباد بعضهم لبعض)[3].

خرج علي عليه السلام إلى السوق فرأى رجلاً أعمى يتسوّل قال: أفي إمارتي ورجل يتسوّل؟ قالوا: هوّن عليك يا أمير المؤمنين إنه رجل نصراني. قال: أين أمضى شبابه؟ قالوا: بناء في الكوفة، قال:

---

(١) نهج البلاغة ج٤، ص ١٨.
(٢) نهج البلاغة ج٣، ص ٨٤.
(٣) مستدرك سفينة البحار، ج٣، ص ٤٥٤.

«استعملتموه شاباً ولفظتموه شيخاً كبيراً، أجروا له من بيت المال)[1].

وفي أماكن أخرى يقول عليه السلام:

«الفقر في الوطن غربة والغنى في الغربة وطن»[2].

«وكونوا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً»[3].

ذاك أن المواطنة مساحة شاسعة للتعارف والاستفادة من كافة الحقوق الاجتماعية وغيرها.

يقول علي عليه السلام:

«لا يصلح شأن الناس إلا بالتعايش والتعاشر».

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ

---

(١) وسائل الشيعة ج١٥، ص ٦٦.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص ١٣٨.

(٣) ميزان الحكمة ج٢، ص ١٧٧٨.

شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

وتبلغ ثقافة المواطنة ذروتها عند الإمام عليّ عليه السلام بقوله:

«عاشروا الناس عشرة إذا غبتم حنوا إليكم وإذا متم بكوا عليكم»[2].

يقول عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام:

«اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها»[3].

«ربّ قريب أبعد من بعيد ورب بعيد أقرب من قريب والقريب من لم يكن له حبيب»[4].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) نهج ج٤، ص ٤.
(٣) نهج البلاغة ٣، ص ٤٥.
(٤) نهج البلاغة ج٣، ص ٥٥.

كذلك قول علي عليه السلام:

«صلاح شأن الناس التعايش والتعاشر ملء مكيال ثلثاه فطنة وثلثه تغافل»[1].

لا يكون ذلك التعايش إلا في ظل المنهج الرباني الذي وضع للبشرية وهو منهج لا يحابي أحداً إنما هناك البشر جميعاً متساوون في الحقوق ومتساوون في الواجبات.

الإسلام سلوك اجتماعي، تفاعل مع الآخر في سبيل أداء الحقوق والمصالح لأن الجنس البشري يرجع إلى أصل واحد وكل الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. وان وقع خلاف أو اختلاف فيما بينهم لا يكون مصدر صراع أو نزاع في المجتمع انما يأمرهم الباري عز وجل إلى رد الأمر إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وأولي الأمر منهم وهم أهل البيت عليهم السلام. جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

(١) بحار الأنوار ج٧١، ص ١٦٧.

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاونهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

كما قال ﷺ:

«إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[2].

يقول الإمام الحسين عليه السلام:

نحن حزب الله الغالبون وعترة رسوله الأقربون وأحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله ثاني كتاب الله وفيه تفصيل لكل شئ... والمعول علينا في تفسيره... نتبع حقائقه فأطيعونا فان طاعتنا مفروضة اذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة قال الله .﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾»[3].

---

(١) صحيح مسلم، ج٨، ص٢٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص ١٨٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩ وسائل ج ٢٧، ص ١٩٥.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن نمت الليل ضيعت نفسي وإن نمت النهار ضيعت رعيتي»[1].

يجب أن لا نرى الإنسان إلا كما رآه علي عليه السلام:

«إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»[2].

لا للتعايش فقط بل للتواصل الخلّاق الذي يضمن الاستقرار والاعتراف بالآخر.

على الوالي أن يكون ساهرا على أبناء رعيته رحيما لَهم.

«فلا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم اكلهم فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وأما نظير لك في الخلق»[3].

---

(١) كنز العمال، ج١٢، ص ٥٧٩.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص ٨٤.

(٣) البلاغة ج٣، ص ٨٤.

وفي وصيته عليه السلام للإمامين الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام:

«كونوا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»[1].

ويقول علي عليه السلام:

«والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت»[2].

هنا تتجلى عظمة الإمام عليه السلام أكثر فأكثر، إن الحق مهما بدا صغيراً فإن له القيمة المطلقة ولا يجوز اللامبالاة به حتى ولو كان حق نملة في جلب شعيرة. مما يدخل الطمأنينة والأمان إلى قلوب سائر المواطنين بحماية مصالحهم والاهتمام بشؤونهم.

وأوصى عليه السلام ولده الحسين عليه السلام قائلاً:

---

(١) ميزان الحكمة، ج٢، ص ١٧٧٨.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص ٢١٨.

«أوصيك بتقوى الله في الغنى والفقر وبالعدل على الصديق والعدو»[1].

ان ما تقدم من قيم ومفاهيم المواطنة وتجنبا للفتن التي تأتي على الاخضر واليابس وتتفشى في المجتمع المريض تفشي النار في الهشيم يحتم النظر إلى النصوص بعين الإئتلاف لا بعين الاختلاف. ذاك أنّ البحث في المشتركات بين الديانات السماوية بموضوعية من شأنه أن يعطي ثماره في تحصين المواطنة ودفعها إلى الأمام وتغذيتها بروح التسامح وأوكسجين المحبة فالمسألة ليست في النصوص بقدر ما هي في النفوس وهذا يقتضي الإنفتاح على النصوص لطمأنة النفوس.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص ٢٣٦.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٢.

المطلوب هو التوجه إلى الله والتركيز على القضايا العملية والإبتعاد عن المسائل العقائدية بتفصيلاتها ودقائقها، فلكل ديانة كتابها وعقيدتها، وكل ديانة تعتبر كتابها مقدساً. العلاج الناجع هو ذاك الذي جاء به القرآن الكريم حيث قال سبحانه وتعالى:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾[1].

(١) سورة الحج، الآيتان: ٦٧ ـ ٦٨.

الخاتمة

هكذا تأتي الإشراقات القرآنية أنواراً ربانية تضيء بصر وبصيرة من أعشت قلوبهم عتمة الجهل والعصبية النكراء، وتؤكد بكل انفتاح الدعوة إلى التعايش وقبول الآخر.

الاسلام رسالة عظيمة، رسالة الحرية والتعددية وهو يصر على هذه الصيغة المقدسة من التعايش بين الأديان. وهذه الصيغة ركيزة المواطنة. ففكرة حقوق الطوائف فكرة إجرامية لا بدّ من استبدالها بفكرة حقوق المواطن. يجب أن نتحوّل إلى مواطنين لا أن نبقى قبائل وقبائليتنا تتفاقم فيكون الولاء للوطن لا للطائفة ويكون الولاء لله لا للتعصب.

إن إنسان الحضارة اليوم يعيش أكثر من حرب وصراع ولعل أهمها وأشدها تأثيراً في مجتمعه وواقعه تلك التي يخوضها في داخله مع ذاته، أن يكون مع الآخرين ولأجلهم، وهذا هو معنى وجود الإنسان. كما جوهر الإنسان أن يكون في إيمانه مع الآخرين ولأجل الآخرين.

عندما يتصالح الإنسان مع ذاته الإيمانية يمكنه أن يتقبل الآخر ويتعايش معه، ومما لا شك فيه أن عملية التعايش ليست عشوائية ولا ينبغي أن تكون كذلك بل تنظمها أطر المواطنة الصحيحة.

علينا تبيان الوجه المشرق للإسلام، وتبديد تلك الصور المشبوهة التي تروجها وسائل الإعلام عن العرب والمسلمين لخلق ما يسمونه بالـ Islamophobie أو الاسلامفوبيا أي الخوف من الإسلام. هنا تجدر الإشارة إلى دور الإعلام المرئي والمسموع والمقروء الذي يعمد إلى

إظهار المسلمين بأنهم شعوب إرهابية متخلفة حتى صار كلما ذكرت كلمة عربي أو مسلم تبادرت إلى الذهن وخاصة في الغرب صورة الإرهابي.

ليس المطلوب من الإنسان أن يتخلى عن هويته ويذوب في الآخر بل العكس هو الصحيح، أن يبقى على هويته وأن يتقدم نحو الآخر، ولا يكون ذلك إلا بالمصالحة مع الذات أولاً وجمع شتاتها ولملمة ما تبعثر منها. يجب استبدال الشعور بالتهميش بالشعور بالتفوق والتمييز ووضع الطاقات في خدمة المجتمع. علينا تفعيل قيمنا الإيمانية لا إلغاء الدين، علينا ليس إلغاء الطائفية بل إلغاء الروح الطائفية، علينا تغيير ذهنيتنا وتطويرها. نقول لمن يزورون الحقائق ويدّعون الإيمان، كفى تجارة بتعاليم السماء وشرائعها! كفى قلب الحقائق وخلط

الأوراق!.. دعوا للشرق روحانيته وللدين قدسيته وماهيته، ودعونا ننتج للعالم عبر الحوار البنّاء فكراً إيمانياً إسلامياً مسيحياً يروّج لثقافة المواطنة وقبول الآخر، فكراً يكون قراءة معاصرة لفكر الإمام علي عليه السلام وسائر الأئمة عليهم السلام.

الفهرس

الإهداء ٥

القسم الأول: صراع الحضارات والخوف على الهوية ١٣

صراع الحضارات والخوف على الهوية ١٥

أ ـ العولمة وخطرها على الهوية ١٦

ب ـ «الربيع العربي» ١٧

ج ـ تفشي الفتن والأفكار التكفيرية ٢٠

د ـ اعادة صياغة الهوية الاسلامية ٢٤

القسم الثاني: المواطنة في فكر الإمام علي عليه السلام على ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ٣٣

المواطنة ٣٥

أ ـ تعريف المواطنة ٣٥

ب ـ الحرية الدينية ٣٨

ج ـ العدل ٤٤
د ـ الحب والتعاون ٤٨
هـ ـ الديموقراطية ٥٢
و ـ نبذ الفتن والارهاب ٥٧
ز ـ المساواة والتعايش الآمن ٦١
الخاتمة ٧٣